الحجاج في العرار المشتار

د. سمية رومي عبدالعزيز الرومي
جامعة الاميرة نورة - الرياض-

ملخص

يعد الحجاج من أهم الوسائل التي يستثمرها المرسل في خطابه ، وهذه الدراسة خصصتها للبحث في دور الحجاج في محاضرة : (العرار المشتار في حكمة النبي المختار) وعنوان الدراسة : (الحجاج في العرار المشتار). وقد خرجت الدراسة بعدة نتائج منها ؛ اتضح للمتلقي أن القرني صاحب قدرة حجاجية وخطابية استطاع توظيفها توظيفا ناجحا بسبب إلمامه بأبعاد السياق الاجتماعي والنفسي للمخاطبين ، كما أن الحجاج في العرار المشتار لم يكن مستقلا عن السياق الاجتماعي والقولي والتداولي أو السياسي بل كان مندرجا في جدل التفاعل الحجاجي الذي كان قائما بين المحاج القرني وجمهوره المخاطب .

واتضح أن الصورة الحقيقية والمجازية كان لها الدور الأعظم في التأثير الحجاجي الذي أعاد تشكيل المخاطب وجدانيا وعلميا وسلوكيا .

Abstract

The argumentation is deemed one of the most important means employed by the sender in his letter. I allocated this study for the study of the argumentation role in a lecture: (Al-Irar Al-Mushtar in HusnTasaruf Al-Mukhtar). The study is titled: (the Arguments in Al Irar al Mushtar). The study concluded that: it turned out to the receiver that Al-Qarni has great argumentation and speech ability he could successfully employ that ability due to his wide knowledge of the social and psychological aspects of the receivers he addressed. The argumentative argumentation in Irar al Mushtar is not separated from the social, verbal, controversial or political context but included in audience Qarni, and his addressed-interaction argument between the argumentator, Al

It turned out that the true image and metaphor had a greater role in the argumentative influence, which reconfigured the receiver emotionally, scientifically and behaviorally.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة أفصح من نطق بالضاد من بعثه ربه بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وعلى صحابته الذين قدموا الغالي والنفيس لنصرة دين الله فأضاءوا بسيرهم المدلهمات لمن بعدهم فكانوا قدوة وأسوة تغرف من معين سيرهم الأجيال تلو الأجيال أما بعد :

تعد دراسات الحجاج في النصوص اللغوية من أحدث الدراسات اللسانية والخطابية التي تحاول الوصول إلى الخصائص الأسلوبية التي ينتج عنها إقناع المتلقي بما يريده المرسل من الخطاب، وأجمعت الدراسات على أن الحجاج من أهم الوسائل التي يستثمرها المرسل في خطابه . لذا أولته الدراسات الخطابية أهمية عظيمة في الدراسات الحديثة ، وهو فرع علمي ينبثق من اللسانيات التداولية الخطابية بشكل عام ، والحجاج الحديث يشمل الكلام العادي، والكاتب الأدبية ، والكاتب القانونية ، وغير ذلك من الأشكال اللغوية ، ولا يقتصر على النصوص الدينية والأدبية¹.

وفي هذه الدراسة سوف أخص محاضرة : (العرار المشتار في حكمة النبي المختار) بالدراسة وسوف يكون عنوان الدراسة : (الحجاج في العرار المشتار).

وسأجعل البحث يسير وفق الخطة التالية :

الحجاج لغة واصطلاحا .

أركان الحجاج

الحجاج في العرار المشتار .

البنية العليا في العرار المشتار وتوظيفها الحجاجي .

مقدمات الحجاج .

أساليب الإنجاز الحجاجي .

المسار الحجاجي في العرار المشتار .

الصورة وأبعادها الحجاجية في العرار .

وأخيرا سأذيل البحث بخاتمة أعرض فيها ما توصلت إليه من نتائج ، ثم قائمة المصادر والمراجع.

والله أسأل أن يبارك هذا الجهد ، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم إنه ولي ذلك والقادر عليه .

الحجاج لغة :

قال ابن منظور: (يقال حاجته أحاجه حجاجاً ومحااجة حتى حججته ، أي غلبته بالحجاج التي أدليت بها، ...وقيل: الحجة ما دافع به الخصم. واحتج بالشيء : اتخذ حجة)².

حاجه محااجة وحجاجا : جادله . وفي التنزيل الحكيم (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) ، واحتج عليه : أقام الحجة . وتحاجوا : تجادلوا و (الحجة) الدليل والبرهان³.

الحجاج اصطلاحاً :

يقصد بالحجاج النظام التعبيري الذي يستند إلى جملة من المبادئ والآليات الناظمة للدفاع عن قضية ما ، وتحليلها ، وإثباتها ، والبرهنة عليها⁴. ويعرفه بعض الدارسين بقوله : (جملة التقنيات الخطابية التي تمكن مستعملها من إثارة الاعتقاد أو ترسيخه في العقول من خلال أطروحات مقدمة وأقوال معروضة)⁵.

أركان الحجاج :

تقوم بنية الحجاج النظرية على عدة أركان هي: طرفا الحجاج، والقضية المتنازع عليها،

وخطاب الحجاج ، والإقناع ، وجمهور الحجاج : المخاطبون والمتلقون⁶.

والحجاج يشمل كل قول يهدف إلى الإقناع بما في ذلك النصوص التعليمية والتوجيهية . وهو يتكون ضمن اللغة الطبيعية للنشاط اللغوي للمجتمع ، ومن أهم أنواع النصوص النظرية التي تعتمد الحجاج وسيلة للإقناع الخطابية والمحاضرة والمناظرة وغيرها .

تسود الخطابات الحجاجية في الحقول والميادين التي يحكمها النزاع وتسيطر عليها الخصومة، وهي تهدف إلى تحقيق الإقناع العلمي اتكاء على البراهين المؤيدة والقصد المعلن، والاستدلال الواضح والأفكار المترابطة الخالية من المغالطات والأكاذيب⁷، وفي هذا الوقت الذي أصبحت المعلومة يأخذها المتلقي من مصادر عدة منها الصادق ومنها المغرض يتوجب على كل من يحمل هم أمانة الكلمة أن يسخر الوسائل المختلفة لتصحيح الخطأ ونشر الحقيقة، لذا فإن الحجاج محكوم بغاية أخلاقية متمثلة بالصحة أو الخطأ . ويرى (أوزفالدديكرو) و(جون كلود أنسكمبر) أن الحجاج لم يعد نشاطاً لسانياً من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى نفسه وأساس تأويله في الخطاب، إننا نريد أن نصل إلى القول: إن الإخبارية في الواقع تعد من درجة ثانية بالمقارنة مع الحجاجية . فالزعم بوصف الحقيقة قد لا يكون إذن إقناعاً لزم أكثر جوهرية بممارسة ضغط على آراء الآخر)⁸.

الحجاج في العرار المشتار:

(العرار المشتار في حكمة النبي المختار) هو عنوان محاضرة لداعية أرض الحجاز (علي بن عبد الخالق القرني)، وسوف أعرض ل(الحجاج في العرار المشتار)، وبداية سوف أقف على عنوان المحاضرة فهو المفتاح الذهبي الذي سيدخلنا إلى هذه النادرة الأدبية القرنية العرار بالفتح بهار البر وهو نبت طيب الريح الواحدة عرارة، أَصْفَرُ اللَّوْنِ، يَكْتَثُرُ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ⁹، والمشتار العاسل صاحب العسل الذي يشتره من موضعه، يستخرجه؛ قال:

وأرى دبور شارة النحل عاسل ، وعسل النحل تعسيلا ، وفي تأنيث العسل قال : بها عسل طابت يدا من يشورها¹⁰.

لكل حجاج مسار يميزه عن غيره من أنواع حجاجية مختلفة ، وفي هذا البناء تتنامى الوسائل الحجاجية بطرق مختلفة وليس وفق طريقة واحدة، وتؤثر قدرات المرسل اللغوية والحجاجية على البناء الحجاجي، كما أن طبيعة المخاطبين وإمام المتكلم بها ونوعية ثقافتهم وطبيعتهم النفسية والاجتماعية

2- ابن منظور ، لسان العرب ، طبعة الأوقاف السعودية الأميرية ، ج 3 مادة حج ص 51

3- إبراهيم انيس وآخرون ، المعجم الوسيط ط2 ، ج 1 ، ص 156 - 157

4- هيثم سرحان ، الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد - مقارنة في تحولات الهوية الثقافية ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وأدابها ، مطابع جامعة أم القرى ، ع 11 محرم 1435 ص 80

5 - علي الشبعان : الحجاج بين المنوال والمثال (نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري) ، مسكيلياني للنشر ، تونس ، ط1 / 2008 / ص15

6- السابق ص 80

7- السابق ص 80

8 - صابر الحباشة ، تلوين الخطاب : فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاج ، الدار المتوسطة للنشر - تونس ، 1428 / ط1 ، ص 196

9- محمد بن أبي بكر الرازي : مختار الصحاح ، دار الكتب العربية بيروت مادة عرر ص 423 وانظر الطاهر أحمد الزاوي ، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1399هـ / 1979م مادة عرر ج 3 / ص 187

10 - ابن فارس بن زكريا ، أحمد ، معجم مقاييس اللغة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط1 / 1422 هـ / 2001 ، مادة عسل ص 744

تؤثر في بناء الحجاج تأثيراً كبيراً. ومحاضرة (العرار المشتار) تأزرت وسائل كثيرة في تشكيل الحجاج فيها ؛ عوامل خارجية تتعلق بصورة الخطيب المتكلم التي لها وجود قبلي لدى السامع وهو ما يعرف بـ(الإيتوس)، وقد جعل أرسطو صورة المتكلم من الحجج التقنية التي يصنعها الخطيب وتجعل خطابه إقناعياً . يقول أرسطو في كتابه (الخطابة) عن حجة الإيتوس أي أخلاق الخطيب: (والخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يلقي على نحو يجعله خليقاً بالثقة، لأننا نستشعر الثقة على درجة أكبر وباستعداد أوسع بأشخاص معتبرين في كل الأمور ... وليس صحيحاً أن الطيبة الشخصية التي يكشف عنها المتكلم لا تسهم بشيء في قدرته على الإقناع بل بالعكس، ينبغي أن يعد خلقه أقوى عناصر الإقناع لديه).¹¹

ومن الحجج المهمة للوقوس LOGOS _ ويقصد به الحجج الماثلة في النص اللغوي ، فالإقناع يحدث من الكلام نفسه إذا أثبتنا حقيقة ما أو شبهها بواسطة حجج مقنعة مناسبة، وتتجلى علاقة اللوقوس LOGOS بالإيتوس في تشكل مجال صورة الخطيب ممثل القيم ... حتى لا ينشق جانبها الخطابي والخطابي . ومبتدأ طرحه للقضية مكنم اختلافه مع المخاطب. فالخطاب في هذه المرحلة يجلي صورة المتكلم التي تظهر في الإحالات بشكل عام: الاسم العلم، والضمائر، والمحددات الزمانية والمكانية، والألفاظ والأساليب المعبرة عن المواقف، والألفاظ والأساليب المتضمنة لأحكام القيمة ويترك بها صورة عن نفسه، وبذلك تتقلص المسافة بينه وبين ملفوظه، وتقسّم بعض الدراسات الإيتوس إلى ما قبل خطابي وإلى خطابي، ويتعلق الإيتوس بما قبل بعوامل أهمها :

الدور الاجتماعي للخطيب وما يشاع عن الخطيب من ادعاءات سلبية كانت أو إيجابية.

ولتحديد صورة الخطيب ومعالمها يفضل دراستها وتحليلها في مستويين اثنين :

أولاً: موقع الباث المؤسسي، الموقع الذي يمنح الكلام مشروعته .

ثانياً: الصورة التي يقدمها الخطيب عن نفسه : التمثل الاجتماعي والعقائد التي يدين بها .

أما المستوى الخطابي فتدرج ضمنه :

الصورة التي يقدمها الخطيب عن نفسه : ويجعلها متجلية في ملفوظه، وكذلك في عملية تلفظه والطريقة التي يعيد بها الخطيب هيكله المعطيات ما قبل الخطابية.

الصورة النابعة من اللحظة الخطابية.. فللمقام وملابساته وظروفه ومكوناته والفاعلين فيه مكانة في تحليل الخطاب وتأويل المحادثات.

وتتجلى أهمية الأيتوس حجاجياً في أن صورة الذات التي تتجلى في ما قبل الخطاب أو في الخطاب تمنح الخطيب "السلطة والمصادقية في عيون جمهوره، فهي بهذا المعنى وداخل هذا السياق المحدد تهيكّل حدث الخطاب الحجاجي وتظرفه.¹²

وفي نظرة نقدية تظهر العلاقة للمتلقى بين الصور التي اختارها القرني في خطابه وشخصيته؛ فقد عرف القرني ببلاغته حيث يدرس اللغة العربية في المعهد العلمي الثانوي في مكة واشتهر بفصاحته وحرصه على تنسيق دروسه، فهو لا يصدر في إلا القليل وذلك لأنه لا يطرح أي موضوع إلا بعد استيفائه بحثاً وجمعاً وتجويداً.

يقول طلعت زهران¹³ مثنياً على فصاحة الشيخ: (لله دره ما فتت بفصاحة أحد كفصاحته ولا بلاغة كبلاغته، ولا أمتعي إلقاء كإلقائه، والله لكأني أسمع شيخاً من التابعين الأجلة يتكلم، وما سمعت له مرة إلا وانتابني زهو وفخر بلغتنا الفصحى، وما ذكر الحسن البصري إلا وخلته علي القرني، وأقسم أنني مكثت في المملكة ثماني حجج كنت فيها أهفو وأشتاق إلى لقائه، ولكم أتمنى أن أرسله أو ألقاه. و والله لا يقل سماعي لشريطه من أشرطته عن عشر مرات، ومنها السماء والسماء، وهمسات للسراة، والنعيم لا يدرك بالنعيم وغيرها، وأكد أحفظها عن ظهر قلب)، وشهادة طلعت زهرانهي شهادة الغالبية العظمى ممن عرفت الشيخ فأقبلت تتغذى من مائدتهمتهل من نعيم بلاغته وفصاحته .

لقد استثمر القرني تخصصه اللغوي في تطعيم محاضراته (العرار المشتار) وإخراجها ببنية عالية فضمن ملفوظه الخطابي جزيل الألفاظ وروائع الصور بتلقائية لا تصنع فيها ولا تكلف؛ إنه يبدأ محاضراته بصلاة طويلة على النبي ذات علاقة بالنعون ، يقول فيها :

(الحمد لله فائق الحب والنوى ، وخالق العبد وما نوى ، نحمده حمداً كثيراً جما على جزيل فضله والنعمة ، لا نحصي ثناء عليه ولو أتتني أصدنا ما أتتني ، له الحمد على ما أولاه بالحمد والثنا، له الحمد حمداً طيباً يملأ السما وأقطارها والأرض والبر والبحر ، له الحمد مقروناً مع الشكر دائماً ، له الحمد في الأولى ، له الحمد في الأخرى ، وأشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترفعنا إلى المقام الأسنا ، ندخرها ليوم الفصل يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير من دب على الثرى ، ما ضلّ و ما غوى ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، سبقت به البشرية ، ونزل فيه وعليه سبحانه الذي أسرى ، ساد الورى بلا امترا ، فهو المجلي والورى إلى وري ، صلى عليه ربنا وسلم ما

11- انظر أرسطو الخطابة تعريب عبدالرحمن بدوي دار القلم ، بيروت ، 1979 م ص 10 بتصرف وعبدالله صولة . في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، مسكليبياني للنشر ، ط1 ، 2011 ، تونس ص : 72 .

12- علي الشبعان: الحجاج بين المنوال والمثال(نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري)، بتصرف ص35-36

13- أستاذ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية لغات وحضارات عربية قديمة .

استقبلت أودية غيث السما ، وما انتهى أمر وتم وانقضى ، وعلى أبي بكر فقد سبق الوري فضلاً وتصديقاً له مذ أسلما ، وعلى الفتى عُمر الذي بجهاده في الله

حل بسيفه ما استبهما ، وعلى شهيد الدار عثمان الذي منه قد استحييت ملائكة السماء ، وعلى أبي السبطين حيدرة الذي ما زال في الحرب الهزير الضيغما ما بدر تم في دجى الليل أضاء ، والآل والصحب الكرام الأتقياء أهل الديانة والصيانة والحياء ، والتابعين ذوي الأمانة و الوفاء ما لاح برق في الأباطح أو خبا ، وتناوحت عُرق الحمائم في قُبا ، أو قال ذو كرم لضيف مرحبا .

من الواضح أن المحاضر قدم شخصيته في المقدمة المترجمة لعاطفة المحبة والإكبار والتقدير للرسول وصحابته مما يقوي الجانب الحجائي في جميع ما يقدمه من مواقف عن الرسول تميز شخصيته، ويستمر في ثايا المحاضرة ينمي في ذات المتلقي هذه الروح التي تحمل الولاء للنبي الكريم وتعيد تشكيل شخصية المخاطب تجاه نبيه وقوته عليه السلام .

إن مكانة الخطيب القرني وشخصيته المحبة للرسول تجعل الحجج التي يقدمها ذات قوة إقناعية عظيمة لا يستطيع المتلقي سوى التسليم والاقتناع بها ، فقد عرف القرني بقرآته المتأنية للسيرة النبوية، ونتاجه الفكري يظهر دقة إمامه بالسيرة ، والقرني لم يهاجم الخصوم الذين تقولوا على الرسول الكريم في خطابه مهاجمة طويلة، ولكنه بدأ باستراتيجية إقناعية من خلال تحريك عاطفة الحب والولاء للنبي الكريم فاستمال عواطف المتلقي من البداية مما أكسب خطابه قوة حجاجية زادت طريقة الإلقاء من حجاجيتها ، فقد كانت نبرات الصوت تحمل تعابير تعجز عن إيصالها الألفاظ مشافهة، ولئن كانت لغة الجسد تؤثر في المستمعين وتساعد على نقل العاطفة من الخطيب إلى المستمعين فقد استثمر القرني نبرات الصوت والإلقاء المتميز في تمثل مضمونه الخطابى ونقله للمستمعين والتأثير عليهم، وجاء توظيفه للنبر والصوت متنسقا مع الحجج النصية، متنسقا مع شخصية المرسل(الأيّوس الما قبل خطابي والأيّوس الخطابى) وهذا كان له دوره في اقتناع المخاطب بما ساقه من حجاج.

كما انه وظف المقام الذي دعاه إلى إخراج هذه المحاضرة ؛ فقد كانت الرسوم المسيئة لمقام النبي الكريم وكذلك الفلم قد بلغ تأثيرهما في النفوس تأثيراً عميقاً ساعد على قبول خطابه.

البنية العليا في العرار المشتار وتوظيفها الحجائي :

البنية العلياأي نص هي : (المخطط المجرد الذي يحدد النظام الكلي لنص ما ، وتتكون من مجموعة من المقولات التي ترتكز إمكاناتها التأليفية على قواعد عرفية)¹⁴.

إذن البنية العليا هي التي نستنتج منها نوع النص أهو شعر أم خطبة أم قصة وهكذا ، والبنى العليا للنصوص تنشأ من أعراف نصية أو أعراف اجتماعية أو ثقافية وهي ليست ثابتة بل قابلة للتحوّل من عصر إلى عصر بحسب العوامل الثقافية وما يتعلق بعوامل التلقي والإدراك ، فمثلا إذا صنف نص ما أنه حكاية شعبية ثم صنف أنه قصة قصيرة فهذا راجع إلى تغيير اشتراطات البنية العليا كالخطبة والمحاضرة والموعظة (...) وهذا يحتاج إلى تفريق دقيق بين بنياتها العليا لتتضح إحداها من الأخرى.¹⁵

والبنية العليا للمحاضرة بشكل عام تتكون من محاضر ومكان يخصص للمحاضرة ومتلقين يتلقون دون حوار، ويمكن تخصيص وقت للتساؤل والحوار، ونص مكتوب ينقل للسامعين يتفق مع الخطابة التي تتكون من (المقدمة أو المدخل والسرد الحكي والخاتمة)¹⁶، غير أن السرد في المحاضرة يتميز بالطول قياسا للخطبة التي يفضل فيها عدم الإطالة.

وفي محاضرة العرار لم يوفر المحاضر مجالاً للحوار وحرص على الإمساك بالمتلقي وليواصل الانتباه والانصات ، فكان المتلقي للمحاضرة يتابعها وكأنها وابل رخي كل قطرة منه يريد المتلقي الفوز بها فإذا ما فاته شيء فهو يحاول تدارك نفسه للفوز بغيرها .

ومما يلاحظ على هذه المحاضرة أنها أخذت شيئا من خصائص الخطبة وأبرزها الإلقاء المتميز الذي يستغل الطاقات الصوتية لإيصال المعلومة والعاطفة في نفس الوقت وقد أسهم ذلك في تشكيل المسار الحجائي فيها، كما أنها اعتمدت تقديماً مشابهاً لتقديم الخطبة إذ بدأها بالحمد والشاء والصلاة على النبي الكريم ، ولكن يختلف تقديمه من ناحية الطول ؛ فقد أطال التقديم وجاءت الإطالة متناسبة مع طول المحاضرة وموضوعها الذي خصصه القرني للذب عن مقام النبي الكريم وهذا أكسب تقديمه بعدا حجاجيا دوره لا ينكر في إقناع المتلقي، ووفر هذا التقديم للمحاضرة مبدأ حجاجيا قويا من (المبادئ الحجاجية)، والمبادئ الحجاجية تعني: "مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة"¹⁷.

14- تون أ . فان دايك : علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ترجمة سعيد حسن بحيري ، دار القاهرة للكتاب ، ط 1 ، 1421هـ 2001م ص 212

15 -انظر الحجج في الخطبة النبوية 294

16- هنريش بليت ، البلاغة والأسلوبية – نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، ترجمة محمد العمري ، أفريقيا الشرق ، المغرب – الدار البيضاء ، 1999م ص 45

17- الحجج في الخطبة النبوية ص297نقلا عن (أبي بكر العزاوي) اللغة والحجاج، بيروت ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، 2009 ، ص 39

نلاحظ أن المقدمة قامت بوظيفة حجاجية تربط المحاضرة بأصول دينية ثابتة وتحمل عواطف الملقى وتنقلها للمتلقى وتستميله وتمهد للموضوع بطريقة تجمع بين التشويق والإثارة وشد السامع ، ليس هذا فحسب بل إن هذه المقدمة تأخذ بعدا حجاجيا يأسر العقل في المرحلة الأولى من الحجاج . وكما اهتم بافتتاح محاضراته اهتم بخاتمتها فهما تمثلان جسرا لنقل المحاضرة ، وقد تميزت مقدمته بالتكثيف الشديد لمحتواها الحجاجي العام الذي موضوعه الذب عن الرسول من خلال سيرته ، و جاءت مرتبطة بالأفكار التي تناولها أثناء عرضه ، ومع أن الحجاج في هذه المحاضرة كان أحاديا إلا أن المتلقي كان حاضرا في خطاب المرسل أشد الحضور ففتح بهذا الحضور نافذة حجاجية تدفع المتلقي للاقتناع ، . وينطبق ذلك أيضا على ختام المحاضرة الدعائي الذي ختم به محاضراته حيث أعاد على السامعين الدعاية للأخذ بهذه المحاضرة ، وعدم التواني في الاستكثار من سماعها، وما أراده كان، فما من سامع يسمع بالعرار إلا وتشتاق نفسه للاستزادة منها، وإعادة سماعها مرات ومرات، وإلى جانب الختام الدعائي أتى بالختم الدعائي الذي جعله شموليا لجميع محاور محاضراته؛ حيث ربط السامع من خلال الدعاء المناسب مع كل فكرة من الأفكار التي تناولها فأدى هذا التكثيف الختامي للمحتوى الحجاجي إلى قوة حجاجية مضاعفة جعلت المتلقي مقتنعا بما سمعه من حجاج، بل ومشاركاً من خلال التأمين على الختام الدعائي ، كما أن هذه المشاركة الحوارية أدت وظيفة حجاجية لأنها برهنت على مشاركة المتلقي فعليا في الحجاج .

لقد وجه القرني حديثه إلى جمهوره مباشرة ، والجمهور المباشر (ينتج ما يمكن وسمه بالحجاج الحواري¹⁸) ، والسامع له أولوية ، (وهو صنيعه من صنائع الخطيب ، لأن طبيعة السامع ومنزلته يكفلان فعليا حركة الحجاج ويوجهان مساعيه ، فبقدر ما يكون السامع صنيعه من صنائع الخطيب وإنتاجا من إنتاجاته ، يكون الحجاج أنجع¹⁹) .

لجأ القرني إلى نمط أسلوبية تركه الأديباء وهو السجع فأحياه بثوب قشيب جعل من هذه الحلية اللفظية حجاجا له دوره في إقناع المتلقي . والمتلقي له حضوره المتميز لدى القرني إذ يوليه اهتمامه فهو محط غايته وإقناعه هدفه الأول ، وجمهور القرني محب للخطيب وهو يبادلهم الشعور لذا فأمله في وصول خطابه عظيم ، إنه يظهر التقدير والاحترام لمن أرفهوا أسماعهم لخطابه وتشوقوا للقائه لذا فهو يرحب بهم ترحيبا يخرج مكنون ذات المرسل تجاه السامعين (فيا من أحسبهم ليوث غابة ، وغيوث سحابة ، يا بسمة الثغر ، ودرة البحر ، وقلادة النحر ، واسطة العقد ، وقرارة العد ، وتاج اليوم والغد، شم الأنوف ذوي النفوس الزاكية من وكم في عمق عمق فؤاديه ، عليكم من حمى البيت العتيق سلاماً عُلى بالراح العتيق ، سلام حل بالأحشا ومنه تضيئ ملامح الوجه العتيق 0 فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما حنت النيب إلى الفصال، وتعلل المحبون بذكر أزمنة الوصال

سلام في ثناياه سرور وسامعه من الأحران ناج
كشهد في زلال بل كروح سرت في جسم معتدل المزاج
وأهلا وسهلاً كلما ننس الصبا بنيتم بأقصى القلب ملهى و ملعباً
فأعشب واديه وطابت ثماره وأمرع مرجّ كان بالأمس مجدبا) .
ثم هو يمهّد لمحاضراته وموضوعها تمهيدا يجتذب السامع : (معشر الأخوة : لا يكاد يخفى أننا نعيش عصر تدافع ومغالبة ، ومعاناة وآلام عظمي ، وتسابل وطيش وتصرفات رعاء ، نعاني فيه من أذيال غرب ، ومن أتباع نهج أبي رغال ؛ فبعد تساقط أنظمة طاغوتية في أزمنة قياسية ، هبت الأذيال مع أبي رغال تحاول جاهدة إعاقة السفينة عن إطلاق الشراع أو خرقها لتستقر في القاع ، تقلد الغرب إلحاداً وزندقة ومن تحلله تجني وتشتار،... إلخ) ، ويستمر في حديثه عن الواقع المؤلم بسلبياته مشخفا الداء ليقدّم الدواء من خلال عرض سيرة النبي عليه السلام لعلاج هذا الواقع .
ويقيم دعاية لمحاضراته فيأخذ بتلايبب السامع (العرار ما العرار أيها الأبرار نبت طيب الريح يقال له : البهار، بل هو النرجس البري الذي دعا إلى التمتع به وبنسيمه القشيري :

أقول لصاحبي و العيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار

ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه غب القطار

شهور ينقضين وما شعرن بأنصاف لهن ولا سرار

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وعرار الليلة برباه يفوق كل عرار لأنه في خلق خاتم المصطفين الأخيار ، عليه الصلاة والسلام، خلق ما شاهدت في مشرق مثله عين ولا في مغرب ، يحن له القلب والناظر وتزكو به النفس وال خاطر ، ويشتاقه الكون والكائنات ، وعن وصفه يعجز القادر ، عرار يقول : الأخلاق الأخلاق يا أمة متمم مكارم الأخلاق ؛ فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تددت فللتدمير والنقم ، ومن تكن برسول الله أسوته ما ضارعتة على الأخلاق بنت في .
عرار ينادي : الأفعال الأفعال مقرونة بالأقوال)

18- علي الشيبان ، الحجاج بين المنوال والمثال ص 24

19- السابق ص 25

ثم هو يربط موضوع لمحاضرة بأحداث الساعة الآتية غير مهمل الواقع المرير الذي تمر به الأمة فيكسب خطابه بعدا حجاجيا حيويا قويا من خلال تفعيل البيان تفعيلا يسهم في تغيير هذا الواقع المؤلم فيقول: (عرار يقول :

أيا أحبائنا في الشام صبراً على هذا التخازل والهزال
ولا تخشوا مكاثرة الأعادي وخشخشة الزواحف والسحال
ولوذوا بالذي يحمي ضعيفا ويهزم باغياً رب الجلال
فعند الله نصر حين يأتي سينفض ما تشابك من حبال)

ومن الوسائل الحجاجية التي كان لها أقوى الأثر في نجاح القرني في حجاجه في العرار المشتار التنظيم في عرض أحداث السيرة ، ثم اختيار المواقف التي يمكن توظيفها للرد على الشبهات والتي تكسب المتلقي قوة حجاجيه يرد من خلالها على الأعداء وقبل ذلك تزيد من حصانته الذاتية أمام الشبهات ؛ لقد أعطى المواقف التي بينت كيفية تعامل الرسول مع الأعداء جل اهتمامه فعرضها عرضاً يرسم المنهاج الأقوم في التعامل مع العدو .

هكذا استطاع القرني توظيف البنية العليا لمحاضراته فأدت وظيفة حجاجية ساعدت على إقناع المتلقي، إن (غاية كل حجاج ان يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها من آراء أو تزيد في درجة ذلك الإذعان . فأجج الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب او يجعلهم يمسكون عنه ، أو هو ما وفق على الأقل في أن يجعل السامعين مهيين لإنجاز ذلك العمل في اللحظة المناسبة)²⁰. وبالفعل حقق القرني في حجاجه هذه الغاية .

مقدمات الحجاج :

المقصود بمقدمات الحجاج (المقدمات المتعلقة بالقضايا التي منها يكون الانطلاق، فهي نقطة انطلاق الاستدلال، ومن هذه المقدمات الوقائع والافتراضات والقيم وهرمية القيم والمعاني)²¹. وقد وفر القرني في محاضراته مقدمات مختلفة لتقوية الحجاج ، من ذلك:

1 - الوقائع : (وتمثل ما هو مشترك بين عدة أشخاص ، أو بين جميع الناس²²)، وقد قدم القرني أحداثاً من السيرة متطابقة مع الواقع الذي يسلم به جمهور المخاطبين .

2 - الحقائق : (وهي أنظمة أكثر تعقيداً من الوقائع ، وتقوم على الربط بين الوقائع ، ومدارها على نظريات علمية أو مفاهيم فلسفية أو دينية²³)، وقد نجح القرني في الربط بين الوقائع التي ساقها من السيرة والحقائق التي يؤمن بها الجمهور من مسلمات دينية عقائدية متمثلة في التوكل على الله وانتصار العدل والحق ، والثقة بسيرة النبي وبالتالي تفعيلها لمواجهة ما تلاقيه الأمة من أزمات .

3- القيم : (إن القيم عليها مدار الحجاج بكل ضروبه ، ولئن خلت منها الاستدلالات ذات البعد العلمي والعلوم الشكلية فإنها تمثل بالنسبة إلى مجالات القانون والسياسة والفلسفة غذاء أساسياً فهي التي يعول عليها في جعل السامع يذعن لما يطرح عليه من آراء²⁴) ، والعرار يقوم الحجاج فيها على القيم ، ولا غرابة في ذلك فموضوعها يتناول السيرة وربطها بالواقع الذي أصبح يعاني من ذهاب القيم في كثير من المجتمعات الإسلامية .

4 - الهرميات : (إن القيم ليست مطلقة وإنما هي خاضعة لهرمية ما فالجميل درجات وكذلك النافع²⁵) وقد اختار القرني من حوادث السيرة أحداثاً تساعد على تغيير الواقع وخاصة ما يخص الجانب السياسي، كما أنه اختار من النماذج الشخصية ما يساعد على بناء شخصية المسلم التي تزرعت ثقتها بقدراتها على اجتياز صعوبات الواقع.

أساليب الإنجاز الحجاجي :

يتمثل الإنجاز الحجاجي بالنسبة إلى الفاعل الذي يريد أن يحاجج في استعمال أساليب ينبغي أن تخدم رهان التواصل الذي هو رهانه حسب وظيفة المقام والطريقة التي ينظر بها إلى الطرف المحاور (أو المرسل إليه) . إن وظيفة هذه الأساليب الأساسية هي تصحيح الحجاج أي إظهار إطار الإشكالية (الحكم) في مظهر المبرر وهو ما يحتم توفير الدليل على ذلك . إن الأساليب المختلفة للإنجاز الحجاجي تساهم إذن في خلق منزلة لما من شأنه أن يتجه نحو التدليل على صحة الحجاج .²⁶ وقد اتكأ القرني في خطابه على أساليب الإنجاز الحجاجي المختلفة ، وراوح بينها فاتجه بحجاجه اتجاها جعل المتلقي يسلم بكل ما ورد فيه ، وفيما يلي سوف أعرض لهذه الأساليب بشيء من الإيجاز :

أولاً : الأساليب الدلالية :

20 - عبدالله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات مسكليبياني للنشر ، ط1 ، 2011 ، تونس ص : 76

21- السابق ص 24

22- السابق ص 24

23- السابق ص 24

24- السابق ص 26

25- السابق ص 26

26- باتريك شارودو ، الحجاج بين النظرية والأسلوب ، ترجمة أحمد الودرني ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ، ط1 ، 2009م /ص 74-75

تعتمد الأساليب الدلالية على قيمة الحجج ، وتتمثل في استعمال حجة تنهض على مواضع اجتماعية وذلك لأن بعض القيم تتقاسمها عناصر طائفة اجتماعية تقافية في بعض مجالات التقييم.²⁷ ولعل فيما قدمناه من حديث عن المقدمات الحجاجية ما يزيد ذلك وضوحاً وجلاءً. فالمقدمات الحجاجية التي استخدمها القرني في حجة لا تقف القيم التي تحملها على طائفة معينة بل تتعدى ذلك إلى الناس جميعاً فلا تحده حدود المكان والزمان المحدود.

وفي العرار نجد أن القرني اتكأ في حججه على مجال الحقيقة، سواء الحقائق الكونية ، أو الحقائق المعرفية التي لا يختلف عليه البشر أياً كان اعتقادهم، أو الحقائق التاريخية والشرعية، وهذا مما يزيد في قيمة الحجج الدلالية التي اعتمدها القرني ، ولننظر إلى وصف القرني لهجرة الرسول ، فهو يصف واقعة حقيقية يعرفها التاريخ ويضمن سرده للحادثة توظيف الرسول للحقائق الكونية والحقائق المعرفية في طبائع البشر من أجل تحقيق النتيجة الإيجابية من الهجرة للبشرية جمعاء ، والقرني في سرده يرسم الطريق الصواب لتحقيق الأهداف العظيمة؛ لذا يبرز حسن تصرف المختار في هذا الحدث الخطير الذي غير مسار التاريخ البشري . يقول القرني: (كان صلى الله عليه وسلم أحسن الخلق تصرفاً أعد لهجرته خطة يحار لدقتها خاطر فأحبط ما دبر الماكر . من تتبع مراحل هجرته رأى من التخطيط البالغ في الدقة ما يبهره اتخذ ما يمكنه من أسباب لتضليل عدوه وإبعادهم عن طريقه، تقنّع وذهب إلى بيت أبي بكر بالهجرة، ولم يعهد عنه أنه يأتيه في مثل تلك الساعة ثم طلب من أبي بكر أن يخرج من كان عنده، ثم أخبره أن الله أذن له بالهجرة، وحصر المعرفة بهجرته في علي وأبي بكر وأهله ، حتى لا يذيع خبره ، ثم خرج من خوخة في ظهر بيت أبي بكر للتصويه على قومه، وأمر علياً أن يبيت في فراشه تلك الليلة... ، وللتعمية اتجه جنوباً لا شمالاً، واختبأ الصديق والنبى في غار ثور، وغدا التيمي يقول: كاد القوم أن يرونا لو طأطأوا الرؤوس والعيون ، والمصطفى يقول نحن اثنان ثالثاً منزل القرآن، ويستقر بيت أبي بكر كله؛ عبد الله يستمع لما يقوله الناس، ثم يأتيهم في المساء بما يكون في يومه، وأسماء تأتيهم بالطعام كل ليلة، وعامر الراعي يرعى الغنم في نهاره، ثم يريح إذا أمسى عليهم فيسقيهم، ويمحو أثر أسماء وعبد الله ثم يعود؛ فيسرح مع الناس ولا يعلمون أين مبيته... هكذا معشر الأخوة علمنا رسول الله حقيقة التوكل على الله؛ فالتوكل حاله والأخذ بالأسباب سنته ولا تمكين إلا بالافتداء به لقد كان لكم في رسول الله أسوة.) هكذا وظف القرني في حججه الحقائق الكونية التي استعان بها الرسول عليه السلام لضمان نجاح أمر الهجرة والحقائق المعرفية التي لا يختلف عليه البشر أياً كان اعتقادهم، لقد ساقها القرني من خلال وصفه الدقيق للحادثة وأبرز الأسباب الشرعية والمادية في وصفه فزاد ذلك من قيمة حججه وبالتالي دلالية هذه الحادثة

كما انه اتكأ على مجال الأخلاق وهو ينص على ذلك بالأدلة العقلية والنقلية وقد كان هذه المجال الحجاجي ماثلاً في حججه بصورة واضحة سواء في عرض أحداث السيرة أو في عرضه للواقع. وفي تفصيل تعامله مع كفار قريش أمثلة لأخلاق النبي الكريم عليه السلام . كما أنه اتكأ على مجال المتعة وقد ساق من الحوادث التاريخية ما حقق للمتلقى المتعة ، من ذلك تعبيره عن فتح اللاذقية (ولما نزل له اللاذقية تدلي بشهادة خزيمية في حنكته القيادية، لما علم أبو عبيدة أنها حصينة ولها باب عظيم لا يفتح بسهولة عسكر بعيداً عنها. ثم أمر فحفرت حفائر تستر الفارس راجلاً ، ثم أمر بالرحيل عنها نهاراً حتى ظن أهلها أنه راجع عنها، ثم أمر جنده أن يعودوا بهدوء لتلك الحفائر ليلاً وأصبح أهل اللاذقية لا يرون للجيش الإسلامي أثراً ففتحو باب المدينة آمينين وأخرجوا سرحهم فباغتهم جند الإسلام من تلك الحفائر يصيحون بهم؛ وتم أمر الشام والثغور يملأها الأمير والمأمور ، وبعد ذا ما بعد ذا وبعدها ولى عظيم الروم قائلاً للبلدة : هذا وداع لا لقاء بعده. إني لأرجو أن أقول في القريب : ولى خسيس الفرس قائلاً للبلدة : هذا وداع لا لقاء بعده) .

ويقول في وصف عهد عمر ابن عبدالعزيز (وذا عمر بن عبد العزيز عادل ما كاد زيد النحو في عصره يعزى إليه ضرب عمرو، وإذا طاش رجال لم يطش، أين رضوى من حلاه وثبير ؟ ، لما قال ابنه: يا أبتى ما عليك أن تمضي إلى ما تريد من العدل فو الله ما أبالي لو غلت بي وبك القدور . قال: يا بني إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمر من العدل فأؤخره حتى أخرج معه طمعا من طمع الدنيا فإن نفروا من هذا سكنوا لهذا، فكان فاروقها الثاني بلا لعب أحيي الذي مات من عدل ومن أدب ، أعادها سيرة هزت عدالتها مناكب البيت من زهو ومن طرب). هكذا جاءت الأساليب الدلالية تستمد قوتها من القيم الحجاجية التي تحملها الحوادث التي اختارها القرني في محاضراته

ثانياً الأساليب القولية :

ونقصد بالأساليب القولية استخدام مقولات اللسان لغاية إحداث ضروب من المقولات اللغوية أو أساليب أخرى من أشكال انتظام الخطاب على نحو دقيق ومنظم وذلك لإحداث بعض التأثيرات الإقناعية في إطار حجاجي.²⁸

اتكأ القرني على بعض الأساليب القولية ومنها أسلوب المقارنة ، والمواقف التي كان يعرض فيها تصرفات النبي مع المشركين تقيم المقارنة وتقوي حجاجية تلك المواقف . وقد وقف القرني على موقفالنبى في صلح الحديبية مقارناً موقف الصحابة في بداية الصلح ، ثم مقارنته بعد مرور وقت من تنفيذ هذا الصلح وحال المشركين وظهور خسارتهم بسبب هذا الصلح ، لنستمع للقرني وهو يقارن صلحالحديبية: (كان صلى الله عليه وسلم أحسن

الخلق تصرفاً وشهودياً من سجاياه ولا تثبت الحجة إلا بالشهود ، وهي لا تخفى على غير البليد ، هذا صلح الحديبية شاهد عدلٌ على أنه أوتي من بعد النظر ما لم يؤته أحدٌ غيره، نظر الصحابة له نظرة مؤقتة فكانت شروطه في الظاهر مجففة، أدخلت عليهم من الهم ما أذهل الأبواب ، ...فتحت قلوب أهل مكة قبل أن تفتح أبواب مكة ، وكسر به الطوق الذي ضربته قريش بتحالفها مع يهود خيبر عليه ، وخسرت به سمعتها عند العرب لأنها تصد عن بيت الله من جاء معظماً له ، وتبين لقريش أنها تحفر قبرها بيدها وتكتب دمارها بقلمها، واعترف الصحابة بقصر نظرهم ، وتواصلوا بعدها بأن يتهموا رأيهم ، إنه فتح قال القائلون عنه : ما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه ، وسورة الفتح به شاهده ..)

ومن الأساليب القولية أيضاً أسلوب الوصف القصصي وهو يتشاكل والمقارنة في النطاق الذي توصف فيه واقعة أو تروى فيه حكاية وذلك لتدعيم دليل أو تعويضه غير أن هذا الأسلوب له وجود خاص لأنه يمكن يساعد على إنشاء برهنة يقال لها (برهنة بواسطة التناظر) تحدث تأثيراً تمثيلاً²⁹. واتكأ القرني في حجاجه على هذا الأسلوب في معظم محاضراته فعرض قصص السيرة وقصص الصحابة وجعلها أنموذجاً حياً لتغيير الواقع .

ومن الأساليب القولية الاستشهاد (وينشأ هذا الأسلوب عن ظاهرة لسانية للأسلوب غير المباشر . فالاستشهاد إذن لن يكون له هنا المعنى الذي يمنحه له الاستعمال الجاري أحيانا يعني : نقل وقائع ومعطيات وأمورا دقيقة وأرقام

وتفاصيل ... وذلك لتدعيم حجة وإحداث تأثير تصديقي في الحجاج)³⁰. والاستشهاد بالأثر سواء كان من الوجيهين أو غيرهما من مصادر قولية لها سلطة فاعلة في الجمهور ، وتبنيان منزلة المأثور بحسب مصدره .

من ذلك وصفه لاستعداد الرسول لغزوة أحد : (وكانت التعليمات الأخيرة منه لجيشه بالآيسلوا السيوف حتى يغشاهم العدو، وألا يرموهم حتى يذنو منهم ، إن دنا القوم منكم فانضحوهم ، وأمر بالآيكثرأ من الرمي استبقاء للذخيرة (واستبقوا نبلكم) ، ثم دفعهم إلى السماء مزهداً في الأرض ، (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض) ، والتم القتال بين المسلمين والمشركين ، وانجلى الحق اليقين ورفع الرسول كفي الدعاء إلى المهيمن المجيب من دعا ، فانهمز الجمع وولوا الدبر كما قضى الرحمن ذاك في الزبر ، ونكص الشيطان للفرار ، وقال ما أنا لكم بجار، فانكشف الغبار عن سبعين قد قتلوا وأسروا سبعين ، وقذفوا ببئر بدرٍ كلهم ، ووقف النبي مبعثاً لهم ، أن قد وجدنا ما وعدنا حقاً فهل وجدتم ما وعدتم حقاً ؟ وسمعوا القول ولو أجابوا، لكان قول نعم الجواب)، ويستشهد بالأمثال والأشعار ، وقد سبق واستشهدنا بإيراده لأبيات القشيري .

ومن الأساليب القولية التي اعتمدها أسلوب التراكم : (يتمثل هذا الأسلوب في استعمال عديداً من الحجج لخدمة دليل واحد)³¹. ومن الأساليب القولية التي اعتمدها أسلوب الإشكالية : (يتمثل هذا الأسلوب في وضع الخبر موضع سؤال وهذا الخبر يتوقف تحققه على الجواب (الواقعي أو المفترض) الصادر عن الطرف المحاور . والإشكالية ذات الطابع الحجاجي تتناسب مع نموذج من التصحيح الافتراضي³². وقد اعتمد القرني هذين الأسلوبين في حديثه عن خلق النبي و تعامله مع الأنصار عندما تحدثوا عن عطائه للمهاجرين يقول : (ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي واضعاً نفسه مكانهم متكلماً بلسان حالهم. أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك . ثم حرك كوا من نفوسهم معترفاً بفضلهم وعلو شأنهم مبيناً أنه ما حرمهم إلا اعتقاداً منه بعلو كعبهم في الإيمان قائلاً لهم : أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم . والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار ؛ اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . تتألقها الأنصار عنه فأصبحت تجاب بها أرض وتطوى سبابس ، فضاربة في الأرض وهي مقيمة كأن مطاياها الجنوب أو الصبا ، نقلهم بها من حياة شاة وبعير لحياة البشر النذير وزودهم الدعاء الأثير ؛ فانهاالت الدموع فرحاً ولهجت الألسن: رضينا برسول الله قسماً وحظاً . وحال كل واحد منهم والله ما أنت وأهل العلا إذا تأملتهم وانتقيت إلا كبيت الله في فضله على بيوت الناس والكل بيت ..)

لقد وظف القرني أسلوب الاستشهاد المتمثل بالاستشهاد بأقوال الرسول وردود الأنصار ، وهي في الوقت ذاته تظهر توظيف القرني لأسلوب الإشكالية في حجاجه؛ يتضح ذلك في قوله : (ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي واضعاً نفسه مكانهم متكلماً بلسان حالهم. أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك) ؛ فقد عرض السؤال للطرف المحاور الذي يرتبط المحاج بإجابته من خلال الاختيار الذي سيحدد من العرض الذي عرضه المحاج ؛ إضافة لأسلوب التراكم الذي أتى بالحجج المختلفة التي تجعل الأنصار على حق في ما جاء من نفوسهم من موقف النبي من المهاجرين ، ثم يأتي رده صلى الله عليه وسلم على حججهم بحجج عديدة تتلاشى أمامها حججهم فيقتنعوا بعبء النبي وما حازوا عليه من أعطيات فاقت ما حصل عليه أهل مكة من أعطيات .

المسار الحجاجي في العرار المشتار :

29- السابق 92

30 - السابق 94

31- السابق 96

32- السابق 97

المحاج في حجاجه يعتمد آلات تسمى حججا لحمل المتلقي على الاقتناع ، والقروني اعتمد جمعا من الحجج النقلية التي نقلها من السيرة ، وسوف أحاول فيما يلي الوقوف على نظام القروني في ترتيبه للأفكار التي عرضها في العرار والنظام الذي اتبعه في بسط الحجج والتعرف على طريقته في ترتيب هذه الأفكار وتبويبها داخل خطابه .

اعتنى القروني بنظام الحجج التي ساقها وربتها ترتيبا تظهر فيه البراعة في تسلسل الحجج الكثيرة ، وقد أخضع حججه وبراهينه لمخطط يتسم بالمنطقية ليؤثر في المخاطبين واتباع هندسة شكلية في عرض كل سمة حيث يبدأ بتقديم ملؤه الثناء على الرسول وعمله الذي سينكره ، ثم يورد الحادثة معتمدا الحجج النقلية الصحيحة وبعدها يضع تعليقا ختاميا، وغالبا ما يوظف المجاز في التقديم والختام توظيفا يحمل المتلقي على الاقتناع .

ومقاربة نص هذه المحاضرة مقارنة منهجية تكشف المنطق الداخلي الذي اعتمده القروني في حجاجه ومهمته التي لم يكن هدفها إثبات الحقائق التي أوردها بقدر ما هي إيقاظ لهذه الحقائق لتعمل في النفوس، وإحياء عقيدة المحبة والولاء للنبي الكريم لتؤدي عملها في ذوات المتلقين ، وقد استدعى القروني الحوادث المشهورة التي غالبا ما تكون معروفة لدى المتلقي واستحضار المتلقي لهذه الحوادث من مخزونه العلمي يحمله على الاقتناع .

بدا القروني محاضراته بمقدمة حجاجية كان لها دور لا ينكر في تقوية الحجاج كما بينا في دور البنية العليا للنص ، وقد أدت هذه المقدمة وظيفة مهمة تمثلت بشد السامع وجذب عاطفته وعقله، ثم زاد من جذب اهتمام المخاطبين بتزجيده الحار الذي حمل في ثناياه محبته لهم وأمله في همهم العالية ، وبعد ذلك بدأ بالحديث عن حال العصر وما فيه من تدافع ومعاناة وآلام ومؤامرات تحيط بالأمة مفضلا الحديث عن أعداء الأمة المترصنين بها مقدما الدواء الناجع من القرآن والسيرة التي سيعرضها ، وابتدأ على جملة من الوسائط اللفظية المقالية التي يستعملها حججا على صحة ما يذكره ، كما اعتمد على مجموعة من الحقائق ومنها ؛ توحيد الله ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقروني واثق من قوة حجاجه في العرار وقوة تأثير هذه المحاضرة في المخاطبين ودفعهم للاقتداء بالنبي الكريم ، لاسيما وأن المتلقي يرى تطبيقا عمليا لهذه الحقائق بارزا أمامه في شخصية القروني .

لقد صدر القروني حجاجه بحقيقة الوجدانية ، وذكر الرسالة المحمدية أعظم المنن الإلهية، وبذلك أوجد رابطا قويا بينه وبين الجمهور المحب لنبيه الكريم ، فالمرسل والمرسل إليه متفقان على مبدأ محبة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد اشترط علماء (الحجاج في نجاعة الخطاب أن يحصل بين المحاج والمحجوج ضرب من التوافق).³³

إن القروني لديه وعي بمسارات القول ومآلاته وهو يدرك أن القول إذا لم يقنع الملقى فمآله الزوال ، لذلك كانت حقيقة المحبة والولاء للنبي الكريم في ذوات المتلقين حججا اتكأ القروني عليه في سائر محاضراته وبالتالي ضمن لكل حادثة حجاجية ينقلها من السيرة القبول والاقتناع والإعجاب الذي يطمح القروني إلى تحويله إلى واقع عملي يعالج الواقع المظلم معتمدا في حجاجه على النقل الذي يجعل النفوس تطمئن لما ينقله من حجاج ، خاصة وأنه يربط كل حادثة بخلق النبي الذي جعله عنوانا لمحاضراته ؛ من ذلك ذكره لحادثة إعادة الحجر الأسود مكانه ، فقد ذكر الحادثة التي كانت قبل البعثة مدلا بها على حسن تصرفه وبصيرته النافذة ، ونباهته وذكائه عليه السلام وذكر إجماع العرب ورضاهم بحكمه (رضينا بالأمين) و اختيار هذه الحادثة تجعل صاحب الحيات والأحكام الموضوعية يقف معه ، وبالتالي ضمن شرائح من جمهوره المتلقي على اختلافها .

ثم يستدل على سرعة بديهته في حل المشكلات الاقتصادية الطارئة فذكر مؤامراته بين الأنصار والمهاجرين، وفي ذكر هذه الحادثة يستدل بالسيرة النبوية على ما يجب أن يحدث مع اللاجئين من أبناء سورية وواجب المسلمين نحوهم ، ثم يذكر أسلوب النبي في حل النزاع بين الطوائف، وخص النعرات التي أثارها المناقون في المدينة بشيء من التفصيل .

وبعد التقاطه لهذه الحوادث التي تبين منهجه صلى الله عليه وسلم في حال السلم ينتقل إلى التقاط حوادث يدل بها على سرعة بديهته في حل المشكلات الحربية ، فذكر حسن تصرفه في غزوة أحد ، وبين عوامل النصر بالتفصيل ، وبين عامل الهزيمة الظاهرة ، مثبتا من خلال عرضه صدق الحق سبحانه : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون)؛ فقد ذكر مواجهة النبي لهذه الهزيمة الظاهرة بالسير مباشرة إلى حمراء الأسد لغزو قريش بعد هزيمة أحد في اليوم التالي، وقد زرع ثقة قريش بهذا الخروج ، والقروني في تفصيله لهذا الحدث يعطي فقه عمليا للنوازل التي تنزل بالمسلمين لكي لا تقف في عضدهم ، وهو في حجاجه هذا أقنع المخاطب وفعل خطابه فغايتة التقويم والانجاز العملي .

ويتبع هذا الموقف بذكر صلح الحديبية مظهرا آثاره الإيجابية ، وبعد نظر النبي مؤيدا ما يذهب إليه بما قيل عن هذا الصلح(ما فتح في الإسلام فتح أعظم منه).ويستمر القروني في حجاجه مظهرا في كل موقف درسا عمليا يرمي إلى تفعيله بجمهور المخاطبين ؛ فغايتة كما ذكرنا التقويم والإنجاز العملي ، وبالتالي هذا التقويم والعمل يساهمان في إيقاظ عقيدة المخاطب التي أصابها الضعف من جراء الواقع المؤلم لتعود لها قوة التوكل والإيمان ومحبة الرسول وإظهارها بالاتباع والعمل والانجاز .

وفي منتصف المحاضرة يركز القروني في حجاجه على فراسة النبي في اختياره لأصحابه، مبينا حكمته في استثمار الكفاءات المختلفة ، وقد نكر مواقف مقرونة بشخصيات أثبتت من خلالها قدرة المجتمع الإسلامي على تخطي الصعوبات التي تواجهه إذا ما استثمرت طاقاته المختلفة ، ثم يفصل

الحديث عن حسن تصرفه مع عدوه وحكته في استثمار طاقات عدوه لتصبح عوناً له في نشر دعوته ؛ فيذكر من يغريه بالمال ليكف شره ، ويذكر من يعطيه المنصب ليستفيد من خبراته القيادية ، ويذكر من يعامله بالقوة والقتل المباغت الذي يقطع الفتنة قبل ظهورها ؛ فكل يعامله بما يناسبه ، والمحاج القرني في حجاجه هذا يضمّر العمل والدفع له بمقتضى هذه الحقائق التي يعرضها من سيرة المصطفى وإن لم يصرح بذلك ، فالتلازم في ثقافتنا الإسلامية بين الفعل والقول ناتج عن بنية اعتقادية لا تفصل بين الأقوال والأفعال .

وبعد ذكره المفصل لمواقف السيرة يعلق القرني على ذلك تعليقا يلخص فيه سمات النبي القيادية فيقول : (سأس الناس بالحب والحكمة ، قاد الغني بالحب والحكمة حتى زهد في ماله، والفقير حتى اغتنى به، قاد من يأتيه رغباً في الجريمة بالحب والحكمة فما خرج إلا والجريمة أبغض شيء إلى نفسه. تأتيه الأموال فيوزعها على جنده ولا يستأثر بشيء منها لنفسه .يأتيه قليل اللبن فيجمع له أهل الصفة لعلمه أنهم لا يجدون مثله .أحب الخير لقومه وكاد يهلك نفسه خوفاً عليهم أن لا يؤمنوا حتى عاتبه ربه. كل ذاولم ينتظر مقابلاً منهم ، فضلاً عن أن يذكرهم بمنجزاته صباحاً ومساءً كأنما يمن عليهم، فاطمأنوا له ونفذوا وأوامره وأحبوه حباً لا يعلم مثله.) القرني بهذا التعليق يقيم حجاجاً لتحويل الخطاب الملفوظ إلى أثر ملموس، وللتدليل على قدرة المسلم في تحقيق هذا المطلب يأتي بنماذج عملية شهدتها التاريخ الإسلامي حققت هذا المطلب ويذكر بعض مواقف الخلفاء الراشدين والصحاب والتابعين ، وبعد ذلك يوجه الحديث للجيل وللجمهور المخاطب ليستثمر السيرة في تغيير حياته كما استثمارها السلف الصالح (أيها الجيل ، قد تقتضي الشجاعة أن تجبن ساعة لا تضع السوط إن أغنى اللسان ولا تضع السيف إن أغنى السوط ، وإذا هممت ورود أمر فالتمس من قبل مورده طريق المخرج، و مداراة لا ادهان تخبي بها ناراً وتقدح ودا ، فعند الحكما الشر بالشر لا يظفا . من شك فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى ، والنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وقد تكون بحج المشرفيات ففي السيف نجاة حين لا ينجيك إحسان، و اللوم للحر مقيم رادع والعبد لا يردعه إلا العصا).

ثم يبين أهمية الأخذ بالقرآن والسنة حيث يقول: (لا أبلغ ولا أمضى في الرد على الانحرافات الفكرية القديمة والمعاصرة من نصوص الكتاب والسنة وفهم سلف هذه الأمة فاقراً كتاب الله جل تدبراً واستمسك بسنة وضياء وإذا أتاك النص من خير الورى فاجعله فوق النجم والجوزاء.) ولتأكيد القرني على المخاطبين بوجوب الأخذ بالقرآن والسنة والوقوف على النص وظيفه حاجبية هي تحصين خطابه من التأويلات المغرضة التي يحاول بها المغرضون لي أعناق النصوص . فقد بدأ بعد ذلك التأكيد بالحديث عن القضايا العصرية الحية ؛ فتحدث عن حال الشام وحال العراق ومصر وواجب الأمة نحو كل قضية متكأ في حديثه على الحجج والبراهين التاريخية والنصية التي بينت العدو وسبل مواجهته ، وهذا ضاعف القيمة الحاجبية لحقيقة التمسك بالقرآن والسنة مع الفهم الصحيح . ثم زاد تحصين خطابه الحاجبي بتوجيه الحديث لعلماء الأمة إذ عول عليهم بتبليغه وتفعيله في واقعهم فهم قدوات وبهذا التخصيص للعلماء قلل من أحادية الخطاب .

وبعد ذلك ختم بدعاء جمع أطراف محاضرتة أشرك به الحاضرين بألسنتهم وقلوبهم وعواطفهم ، وقد نهض هذا الختام بوظيفة حاجبية متوافقة مع المبادئ النظرية والمقاصد العملية التي كانت الحقائق المقتبسة من السيرة تتطوي عليها ، والقرني لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد أن ضمن جمهوراً متقبلاً منفعلاً مقتنعاً بكل ما أورده من حجاج ضمن له الدوام والمصادقية النابعة من مصدرهما الخالدين القرآن الكريم والسنة المطهرة .

الصورة وأبعادها الحاجبية في العرار :

قبل أن نتعرف على الصورة يحسن بنا أن نذكر بأن المتكلم في خطاب الحجاج يصدر عن هدف يجند له أسباب الإقناع للمتلقي؛ لذا يوظف طاقاته البيانية لضمان نفاذ خطابه وفاعليته بما يتوافق مع هدفه، وبعبارة أخرى فإن المتكلم قد يلجأ إلى توظيف آليات متنوعة لاستدراج المخاطبين إلى تأييد الموقف الذي يصدر عنه والهدف الذي يريد تحقيقه. وفي هذه المبحث سنقف على استثمار الصورة .والصورة:(هي الشيء الملموس معبراً عنه في اللغة)ونقصد بهذا التعبير³⁴:إنه تعبير استبدالي يقوم فيه الشيء المشاهد أو الملموس أي الصورة بديلاً عن الفكرة أو المعنى أو المفهوم .³⁵ تعد الصورة من حيث بنيتها قائمة على المجاز الذي يعوض الحقيقة دون أن ينتج عن عملية التعويض هذه تغيير في المعنى الحقيقي . وإنما الذي يتغير هو الشكل أو الصورة التي قدّم فيها ذلك المعنى تقديماً عدل فيه عن المادة المعنوية إلى(التصوير والتقديم الحسي) اللذين أناط عليهما القدماء مفهوم الصورة .³⁶

هناك ترابط منطقي في حديث القدماء عن الصورة بين اعتبارها استبدالاً من حيث بنيتها، وبين اعتبارها للإقناع والتأثير من حيث وظيفتها؛ فهي لما كانت عندهم تعويضا للمعنى أو المفهوم وتصويراً له وتقديمه تقديماً حسياً يروونه كانت الغاية منها في رأيهم تبليغ ذلك المعنى في أحسن صورة، وجعل المتلقين يقتنعون به من خلال الصورة الحسية .

34 - الحجاج في القرآن، ص481نقلا عن الصورة الشعرية الخطاب البلاغي والنقدي جابر عصفور ص 19

35 - الحجاج في القرآن ، عبدالله صولة ، ص 481

36 - الحجاج في القرآن ، عبدالله صولة ، ص 482

والصورة لا تقتصر على (ما يحضره الخيال للبصر من رسوم وأشكال ، فمن الصور ما قام على السمع أو اللمس أو الذوق أو الشم ، أو الحس الداخلي أو الوجدان ، أو التهيؤات والأوهام .ومنها ما لا يحده حاسة واحدة ولا يمكن تنوقه أو إدراكه إلا بتضافر مجموعة من الحواس معا)³⁷ . لقد تنوعت أشكال الصورة عند القرني **ومن أبرز أنواعها التشبيه** ، وقد كان يؤدي وظيفة دلالية مباشرة في بعض الأحيان ، وأحيانا تستثير المتلقي عقليا ووجدانيا وتجذب إعجابه وانتباهه فتزيد من مشاركته وتمهد لقبول الحجاج الذي جاءت في سياقها، من ذلك قوله : (رفع الله به بيت المعالي بحلول راسيات كالجبال) ويدلل على ذلك بجله لمشكلة التعايش بين الطوائف المختلفة في المدينة وحلها بحكمة تتم عن عقلية راجحة.

ومن أشكال الصورة البارزة في العرار التمثيل ، والتمثيل ضرب من ضروب التشبيه ، عند بعض النقاد ، وهو من أقرب السبل لمحاكاة المتلقي لإقناعه، لقد أكد الزمخشري دور التمثيل في (إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق)، وعن دوره في (تبكيه الخصم الألد وقمع سورة الجامح الأبي) ؛ فالتمثيل عنده (يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها)³⁸، ولا غرابة على القرني استعانتها بالتمثيل لأنه يؤدي إلى التأثير والإقناع الخطابي وتقدير ما يحمله من فكر ؛ من ذلك قوله: (نقلهم بها من حيازة شاة وبعير لحيازة البشير النذير، وزودهم الدعاء الأثير ؛ فانهاالت الدموع فرحاً ولهجت الألسن:رضينا برسول الله قسماً وحظاً . وحال كل واحد منهم : والله ما أنت وأهل العلا إذا تأملتهم وانتقيت، إلا كبيت الله في فضله على بيوت الناسوالكل بيت) .

ومن الأشكال التي وظفها القرني الاستعارة والتي كما هو معروف (تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجهه)³⁹ويرى ابن القيم أن الاستعارة : (للاستدلال بالشيء المحسوس على المعنى المعقول) ، ويرى أن وظيفة الاستعارة التخيلية هي وظيفة المجاز الاستدلالية أو بالأحرى الحجاجية .⁴⁰ وفي العرار نقل الصور المعتمدة على التشبيه قياساً بالصور الاستعارية والكناية ؛ من ذلك قوله : (وكتاب الله محفوظ بما وعد الرحمن ما حي بقي ، وهو يجري في الشرايين وإن بات فينا صامتا كالمُطرق) .

بينما نراه يكثر من الاستعارة والكناية ليخصب المعنى الذي يرسله؛(فالبلاغيون فضلوا الاستعارة على التشبيه ؛ ذلك أنها في نظرهم تمثل مرحلة النضوج الفكري، والدقة الفنية، وقوة التصوير وبعد الخيال).⁴¹ ، والاستعارة كما يقول الجرجاني:(ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك كثيراً من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنبي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر)⁴²، واستعارات القرني توافق ما ذهب إليه شيخ البلاغيين .

لذا نراه يكثر من الصور الاستعارية المعبرة عن كيد الحاقدين ، وذلك لأن الاستعارة أقوى من التشبيه ، إن صورة المرسل التشبيهية (وهو يجري في الشرايين وإن بات فينا صامتا كالمُطرق) وما تلا هذه الصورة أوقعت انثلافاً بين طرفي الصورة ولم توحدهما، بينما نجد أن صور الاستعارية ألغت الحدود بين طرفي الصورة فحل أحد طرفيها مكان الآخر؛ ففي قوله: (أصابعها في النار تُشوى ونذلها على جمرها المشبوب راح يهفهم ، ماتت مشاعرهم فما لقلوبهم نبضٌ يرق ومالهن عواطف ، يأكلون مع الذئب و يصيحون مع الراعي، يتتأقلون عن الصلاح فإن بدا وجهُ الفساد فمقبل ومُقارفُ) إن الصور التي اعتمدت التلويح الكنائي قالباً فينا لها قد أكدت المعنى وأدت وظيفة حجاجية ساعدت على إقناع المتلقي ؛ فقد جاءت الكنايات التلويحية⁴³ المتتالية معبرة عن تقلب الأحوال ، وقياس الأمور بغير مقياسها الصحيح وضياح الأمانة . والشكل الفني الذي اعتمده القرني في تصويره أسهم في قوة تأثيره وحجابه .

ومن أشكال الصورة البارزة في العرار المجاز بنوعيه ؛ المجاز المرسل⁴⁴ والمجاز العقلي من ذلك قوله : (إنه عصرٌ و ديدنهُ : أينما تنظر تجد عجا أينما تنظر تجد ألماً ؛ فالشام تغرق في المدامع والدماء، ويعيث قرءٌ في المدائن غاصب ... والرفض ضد بني الإسلام قد كشفت ما أضمرت من نوايا مكرها حقبا ، وكشرت عن نيوب الحقد وارتكبت ما دونه بطش هولاًكو وما ارتكبت ، وصارم العز في أيدي الأباة نبا واستبدلت بالجهاد اللهو والطرب ؛ فلا غرابة إن ديست كرامتها ونال منها أعاديها ولا عجا ، أصابعها في النار تُشوى ونذلها على جمرها

37- أحمد آل مريع، علي الطنطاوي كان يوم كنت صناعة الفقه والأدب، العبيكان، الرياض ط1428، 1هـ ص461

38- الحجاج في القرآن ، عبدالله صولة ، ص 481

39- احمد الساعي ، الصورة بين البلاغة والنقد ص 84 نقلا عن أحمد بن علي آل مريع ، علي الطنطاوي كان يوم كنت صناعة الفقه والأدب ،ناشر العبيكان ، الرياض ط 1 ، 1428 هـ ص 490

40- الحجاج في القرآن ، عبدالله صولة ، ص 481

41- السمات الأسلوبية في الخطاب الشعري، محمد بن يحي عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1-2011، ص 159

42- أسرار البلاغة في علم البيان، الإمام عبد القاهر الجرجاني علق عليه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت لبنان ص 32- 33

43- (هي الكناية التي كثرت فيها الوسائط بين المكني به والمكني عنه أو بين الملزوم واللازم) ، هند جميل ، التلويح الكنائي في تراث العلماء ، مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية ، 6 ذو الحجة 1431هـ ، ص 163 .

44- يعرف البلاغيون المجاز المرسل بأنه لكلمة المستعملة في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة ، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، ويعرف المجاز العقلي بأنه إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له علاقة ، مع وجود قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي . انظر علي الجارم ومصطفى أمين البلاغة الواضحة ، مكتبة البشري ، كراتشي ، ط 2010 م ، ص 117 .

المشوب راح يهف ، ماتت مشاعرهم فما لقلوبهم نبضٌ يرق ومالهن عواطف ، يأكلون مع الذئب ويصبحون مع الراعي، يتناقلون عن الصلاح فإن بدا وجهُ الفساد فمقبل ومُقارف) .

ومن أشكال الصورة أيضا : الصورة الذهنية المباشرة ، وفي العرار نرى الصورة المباشرة حاضرة حضورا لا ينفك عن أي جزء منها ، بدء بالعنوان الذي هو بحد ذاته صورة، ثم جملة الصلاة على النبي التي كان يقفل بها القرني المواقف الحجاجية التي يستدل بها على حسن تصرف الرسول والمتمثلة في قوله: (صلى عليه ربنا وسلم ما استقبلت أودية غيث السما) .

ويرسل القرني الصور متتالية في خطابه منوعا لها ؛ فمن استعارة إلى تشبيه إلى كناية من ذلك قوله: (عن البحر حدث ما تحدثت أمناً فإنك ما تسهب فأنت مؤيد) يشبه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وسجاياه المحمودة الكثيرة بالبحر ، فهو بهذه الصورة القائمة على الاستبدال يهدف إلى الاستدلال على كثرة السجايا الحسان لنبينا الكريم، وفي قوله:(بصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه ، وذو يقظات مستمر مريرها إذا الدهر لاقاها اضمحلت نوائبه) تظهر الصورة التشبيهية دقة النبي في تفكيره وبعد نظره في التفكير ، ويؤكد ذلك في الصورة التالية : (ما عقول الأذكيا في جنب عقله إلا كحبة رمل بين رمال الدنيا)، وقد ربط النقاد بين الاستبدال والاستدلال، وانتهى الفلاسفة والمتكلمين إلى (افتراض أن المجاز طريقة من طرائق إثبات المعنى وإقامة دليل عليه) .

لجأ القرني إلى الصورة التي تبرز المعاني وتظهر الحقائق للذنب عن مقام النبي الكريم ، فما هو ذا يذكر مقام النبي الكريم عند أصحابه ، ومن سيرته عليه السلام يقيم الحجة على الخصم من خلال التصوير الموحى (وبعد مداولة أسلم وأعلن الشهادة فقال عباس بن عبد المطلب هذا زعيم مكة وقد غلب فاجعل له شيئا به يعتز وربك المذل والمعز ، فأمن الذين يدخلون داره وتلك ميزة له وشارة ، هنا معشر الأخوة نقف أمام صورتين متقابلتين ندرک من خلالها عظمة التخطيط والحكمة عند القيادة النبوية التي فاقت كل قيادة بشرية مهما اتخذت من تدابير أمنية ، له طريق إلى العلياء مختصر كالسيل في الليل لا يبقى ولا يدز). فهو يعرض الموقف ثم يعلق ويجعل ختام الحديث الصورة التشبيهية التي أثبتت المعنى فأصبحت دليلا على صحته فكان لها دور في إثبات المعنى، وهي صور مادية محسوسة جسدت صورة النبي الكريم المعنوية فأدت هذه الصور وظيفة استدلالية أو حجاجية .

من وظائف المجاز الحجاجية التي اقترنت عند القدماء بفكرة الاستدلال هي تجسيد المعاني وجعلها مرئية مشاهدة وجعل حضورها في ذهن السامع أقوى ، ووقعها عليه أشد ، وأثرها فيه أعمق. وهذا ما يثبت لنا في محاضرة العرار ،يقول القرني واصفا دخول النبي الكريم مكة عام الفتح بصور مبتهجة تعكس أجواء النصر والفتح الذي عاشه المسلمون : (كتائب كأنها كواكبٌ وهو بها كأنه بدر النجى ، وخالدٌ قيل له ادخل كُدا ودخل النبي من أعلى كدا ، وركز الراية بالحجون وكان فتح قرّة العيون ، فتح به كسرت الأصنام ، والشرك ذلّ وعلا الإسلام ، وظهر الكعبة مما فيها من نسبة الشرك إلى بانيها ، وقام عند بابها خطيبا يقول : لا عتب ولا تنزيبا ، فدخلوا في السلم منقادين لكل حكمه ومدعين). الصور المعتمدة التمثيل أثرت تأثيرا قويا في مسار الحجاج ، والمتلقي لم يقتصر موقفه على الاقتناع بل تعدى ذلك فعاش هذه الأجواء ، والمخالف والمشكك لا مناص له غير التسليم. وبالفعل لقد كان الجرجاني محقا عندما ذكر أن القائل إذا اعتمد التمثيل (كان حجاج برهانه أنور ، وسلطانه أقر ، وبيانه أبهر)⁴⁵ .

ولإقناع المتلقي لابد من مراعاة كفاءات المتلقين المعرفية والنفسية والثقافية والعقدية بحيث يصبح مضمون الصورة غير غريب لدى المتلقين لتصل إلى قلوبهم وتفتح بها عقولهم.

لقد راعى القرني نفسيات جمهوره المتلقي التي لازالت متألمة من الرسوم المسيئة للنبي الكريم، لذا جاء خطابه جاذبا للنفوس مجددا للإيمان في قدراتها الذاتية، باثا للثقة في قدرتها على الرد بسيرة النبي العطرة، وهذا زاد من تأثير الصورة في العرار المشترك.

وأما عن طبيعة تأثير الصورة في العرار المشترك فإن الحجة لا يمكن أن تكون فعالة لمجرد أنها حجة جيدة ، بل ينبغي بالضرورة لكي تكون فعالة حقا أن تصاغ الصياغة المناسبة ، وقد أخذ القرني كثيرا من الصور الجاهزة من الموروث الثقافي فعدل بها بالحذف والزيادة للفت انتباه المتلقي وإخراجه بحلة قشبية جديدة لمعرفته بطبيعة المتلقي الذي يعشق تلك الخطابات التي تفاجئه بالترتيب المصطنع والغريب والجذاب .

تعد الصورة من أهم العناصر الفنية التي تجمع بين الفنية والواقعية في الخطاب فهي(تطلق الذهن نحو آفاق عليا من الحرية والتجديد والتماس المتعة القصوى في استخدام الملكات التي لم يسبق للغة العقلية تحريرها على الإطلاق)⁴⁶، (إن دراسة الصورة الشعرية تبدأ من التركيب الأسلوبى لتصل إلى التصور الفلسفي والأبنيّة ذات الأنماط العليا، وتحاول اكتشاف النماذج الكامنة تحت جميع الصور)⁴⁷.والصورة المجازية لا تتبع من العدم، بل يتأزر

45- الحجاج في القرآن ، عبدالله صولة ، ص 493 .

46- فضل، صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي ،مؤسسة مختار ، القاهرة ، 1992 م، ص357

47- السابق ، ص 362

خيال المبدع مع لغته والحالة النفسية التي يعيشها، إضافة إلى البيئة والعوامل الخارجية التي يعيشها ويتعرض لها المبدع ، كل ذلك يؤدّد الصورة المجازية.

إن الخيال (قوة ذات نشاط ذهني توحد بين القلب والعقل، بين الوعي واللاوعي تثار بحافز عميق ويصحبها انفعال منظم لتتسج صوراً وأشكالاً تعبر عن تجارب متجاذبة متناثرة لكنها منظمة منسجمة وتؤلف كلاً موحداً)⁴⁸.

وهذا ما نجده في العرار التي تأخذ من الشعر عناصر عدة فالصور التي يحملها التناص المتسق مع الموضوع، وما ينظمه القرني من مقطعات شعرية، وما تحمله عبارته المنثورة من صور تنقل انفعاله مع موضوعه بدقة متناهية فتطلق الذهن إلى آفاق عليا تمتع العقل بالجديد والممتع الذي يوظف الملكات الذهنية التي لم يسبق للغتنا العقلية الإحاطة بها من قبل، لنسمعه وهو يصف كيد الحاقدين ممن أعملوا مكرهم وكيدهم لخداع الأمة والمكر بها، يقول: (تحاول جاهدة إعاقة السفينة عن إطلاق الشراع أو خرقتها لتستقر في القاع ، تقلد الغرب إلحاداً وزندقة ومن تحلله تجني وتشتار، ولا تقلده صنعا وتقنية ولا انطلاقاً له نفع وأتمار، للأمر بالمعروف منهم خنجرٌ يُدْمِي وشممٌ معلنٌ وسبابٌ ، ولكلٍ أنثى بالعفاف ترينثُ منهم سهامٌ تأمرٍ وحرابٌ ...)

وإذا كان الخيال يضطلع بمهمة عظيمة وهي (الوصول إلى تغيير روعي في القلب وفي طبيعة الإنسان)⁴⁹؛ فقد جاءت محاضرة العرار المشتار بعد أن تطاولت الألسن الكافرة على مقام النبي، وقد تبعته السنة من بني جلدتنا ممن أصيبوا بتلوث فكري، فلا يخفى أن هناك بين أظهرنا من قريب أو بعيد من تطاول أو شكك في بعض الأحاديث النبوية، وهناك من ضعفت لديه عقيدة المحبة للنبي الكريم ؛ لذا فإن المتلقي المسلم وإن كانت المعلومة التي نقلها القرني في العرار موجودة لديه مسبقاً ؛ فإن الخيال أعاد تشكيلها في تشكيلها جعل هذه الحوادث تعمل في الذات المتلقية بفاعلية لا تجاوز الحقيقة إذا قلنا أنها فاقت الضعف .

لقد جاء الخيال قريب المأخذ، وقد تراوح التصوير فيه بين الاستعارة والتشبيه والكناية فهو من (الخيال البياني المعتمد على أساليب البيان من استعارة وتشبيه ومجاز، ويتميز بسرعة إدراكه وقربه من المتلقي ليفسر أسباب الجمال ويوضحه)⁵⁰.

اتبع القرني في حجاجه المعتمد على الصورة - في غالب العرار - على جعله سابقاً وممهداً للموقف الذي ينقله من سيرة النبي الغراء ، أو ختامياً وهو بهذا الترتيب يزيد من حاجية الموقف الذي يستدل به ، لنسمع تعقيبه على رد النبي على سعد بعد إعلانه موافقته على مواجهة جيش المشركين يقول: (وقام سعد عن الأنصار فألهب المشاعر معلناً أن الأنصار معه حتى لو كان البحر مخاضه، فسُر وأعلن البشارة: أن سيروا وأبشروا أيتها العصابة). والعرار تكثر فيها الصور المجازية المميزة إذ نجد أن الصور تتميز بأنها عقلية يظهر فيها التناص بين العنصرين الذين يجمع بينهما القرني في تصويره ، هذان العنصران الظاهري والباطني ، ويحدد جمالهما الانفعال الذي يوقظ مشاعرنا ويفتحها، إضافة إلى القيمة التي توجد في الصور في ذاتها والتي تبعث الجمال والخير في نفوسنا.

إن التجربة المبررة التي يمر بها مسلم اليوم يحملها المحاضر، وقد نقلتها عدسته الصادقة لنا بصدق عن طريق الإيحاء الكاشف عن المعنى الأعمق للحياة التي نعيشها والتي يريد نقلنا إليها من خلال تفعيل أحداث السيرة . إن النهايات المنتصرة لصبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ترسم نهاية جهاد مسلم اليوم لذا يتابع القرني وصفه (ولم يزل يستطلع خبر عدوه و يتحسس لحظة بلحظة .. فلا ينظر الأشياء إلا بلبه، ولا يسمع الأنباء إلا بعقله ، روي أنه خرج هو و أبو بكر فلقي شيخاً من العرب ؛ فسأله صلى الله عليه وسلم عن جيش مكة وجيش محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال الشيخ من أنتما قال نخبرك إذا أخبرتنا فأخبرهم بما لديه عن الجيشين، ثم قال: من أنتما فقال صلى الله عليه وسلم مورياً: نحن من ماء ، ثم انصرفا) القرني يلتقط الصورة التي استخدمها الرسول عليه السلام (نحن من ماء)، وهو بهذا الالتقاط يدل على ولعه الشديد بالمجاز .

الصورة الحقيقية: ربط القدماء الصورة بالمجاز ، وكثير من النقاد المحدثين يقصرون البلاغة على الاستعارة والكناية⁵¹ ، وأن المرسل لا يقتصر في تعبيره على الصور المجازية بل كثيرا ما يلجأ إلى الصورة الحقيقية . وتقتصر (كارولين سبرجون) أن ننظر إلى لفظة صورة على أساس أنها تتضمن كل صورة خيالية مهما كان شكلها، وكل

تجربة لاتصل إلى المبدع من خلال حواسه فحسب بل بواسطة ذهنه وانفعالاته أيضاً⁵²، فالأثر الجمالي يأتي في النظم المجرد عن الخيال مثلما يأتي في الصور الخيالية ، والصور المعتمدة على الحقائق يوجد فيها من الجمال والروعة ما يقوم مقام الخيال.⁵³

48- الرباعي عبد القادر ، الصورة الفنية في النقد العربي ص 12 .

49- السابق ص 83

50 - عبد اللطيف ، محمد مثال ، الخطاب في الشعر ، ص 212

51- شريم ، جوزيف ميشال ، دليل الدراسات الأسلوبية ص 71

52 - دليل الدراسات الأسلوبية ص 64

53- السمات الأسلوبية في الخطاب الشعري ص 179

حفلت العرار المشتار بالصور الحقيقية من ذلك قوله: (وأخفى نواياه في غزوة الفتح عن أقرب الناس له كأبي بكر وأهله، قصد وورى وأخفى وعمى ، واستطاع أن يحرك جيشاً عدده عشرة آلاف دون أن يعرف عدوه حركته حتى صار قريباً من مكة ، ثم هاجمهم من محاور أربع فأربكهم وأضطربهم إلى توزيع قواتهم وغياب التنسيق فيما بينهم ، فأسقط في أيديهم واستسلموا بأجمعهم ، ما سار مسيراً إلا تقدمه من يستطلع طريقه ، وما نزل منزلاً إلا استطلعه قبل أن ينزل فيه وأقام الحراسة . بسيف مبيد ورأيٍ شديد وعزمٍ شديد وأنفٍ أشم ؛ لما غزا بني لحيان تحرك باتجاه الشام فلما انتشر خبر تحركه جهة الشام عاد بقوته فجاء إلى بني لحيان فباغتهم في المكان وكان ما كان)، وقوله:(كان صلى الله عليه وسلم أحكم الخلق تصرفاً كان للأمة عينا ويدا والحسام العضب والركن الأشد ؛ فعلت آراءه ما لو جرى معها العضب اليماني لأكدا ، لم يستطع عدوه أن يباغته مرة ، و استطاع أن يباغت عدوه في جل غزواته بما لم يعهده، أبو الحزم يقظان البصيرة لم تتم له أعينٌ والسادر الغمر نائمٌ ، في المدينة يهود ومناقفون كما تعلمون ، وأعراب عيون لأهل مكة ، و أنباط عيون للروم مندسة، ولكي تتقل العيون معلومات خاطئة إلى أوليائها قل ما أراد غزوة إلا وري بغيرها ؛ فصير رأيه في البيد جيشاً ومن حزم الأمور له ربايا).

إنه يصف حال النبي وصفا حقيقياً والصور التي ينقلها مؤثرة في الذات المتلقية، وقد جسدت حال النبي ، وهذه ميزة الفن في تقديم الحقيقة، فالنابن يقدم الحقيقة تقديماً مؤثراً (يساهم في عملية التوجيه الأخلاقي . بذلك لا يقدم الشاعر أو الخطيب -مثلاً- أي شكل من أشكال المعرفة، وإنما يقدمان أسلوباً مؤثراً في التعريف بالحقيقة... وتحدد للفن مهمته فيصبح لونا من التربية الجمالية لأخلاق الفرد أو الأمة)⁵⁴ .

ومن الصور الحقيقية قوله: (وفي تدريب وكفاءة عالية باغت بني المصطلق وهم غارون فاستاق نعمهم وشاءهم ، وغنم أموالهم ، وسبا ذراريهم ونساءهم ، واحد ليس له في الخلق ثاني دونه الناس جميعاً والربي أبدأً تتحط عن شم الرعان) كما هو واضحقامت الصور الحقيقية بدورها في تشكيل الصور الفنية ، وجمال الصور الفنية يرجع بقدر كبير إلى الصور الحقيقية التي تأزرت مع الخيالية في نقل أفكار المرسل بدقة ومصداقية . من هذا العرض يمكننا القول بأن الحقل الدلالي الشائع في العرار هو الحقل الديني الذي يرجع للسيرة وقد كان له دور بارز في تشكيل الصور على اختلافها ولا غرابة (فالحقل الدلالي يدخل في تكوين العالم الخاص للقطعة الأدبية، وقد يكون كله أو بعضه تصويرياً ولكن الصورة هنا لا تعمل بمفردها ولا تكاد تتميز - في بعض الأحيان على الأقل - عن سائر مفردات القطعة . وبناء على ذلك فكل وصف شعري هو نوع من التصوير⁵⁵) هكذا جاءت الصورة الفنية طبيعة دون استدعاء ، فرضت نفسها على المرسل واستدعاها من واقعة النفسي فعكست العاطفة والوجدان والفكر الذي انطلقت منه ، وقد أدت وظيفة جمالية ودلالية، والصور (ليست إضافة تجميلية للخطاب بزينة بلاغية ولكنها إعادة تقييم كاملة للخطاب ولكل عناصره مهما كانت هذه العناصر⁵⁶) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات ، وبكرمه وجوده من علينا باللسان العربي ، الذي نقرأ به كتاب ربنا ، ونتلقى سيرة نبيه ، ويجدد هذا اللسان في نفوسنا المعاني ، لتعيد تشكيها في ذواتنا ،أحمده على تعاقب النعم ، وإنهاء هذا الدراسة منة من الله بها علي وها أنا أكتب خاتمتها، وقد توصلت إلى عدد من النتائج أسوقها كالتالي :

- 1- اتضح للمتلقى أن القرني صاحب قدرة حجاجية وخطابية استطاع توظيفها توظيفاً ناجحاً بسبب إلمامه بأبعاد السياق الاجتماعي والنفسي للمخاطبين فتمكن من إقناع المتلقي المخالف بالأفكار التي ضمنها في خطابه، وتمكن من إعادة تشكيل وجدان المتلقي المسلم.
- 2- البنية العليا في العرار المشتار أدت وظيفة حجاجية في المقدمة والخاتمة والعرض .
- 3- أن الحجاج في العرار المشتار لم يكن مستقلاً عن السياق الاجتماعي والتداولي أو السياسي بل كان مندرجاً في جدل التفاعل الحجاجي الذي كان قائماً بين المحاج القرنيوجمهوره .
- 4- الصورة الحقيقية والمجازية القائمة على الاستبدال كان لها الدور الأعظم في التأثير الحجاجي الذي أعاد تشكيل المخاطب وجدانياً وعلمياً وسلوكياً .

المصادر والمراجع

<https://archive.org/download/AI3arar/AI3arar.doc>محاضرة العرار المشتار

1. إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج 2 ، ط2 .
2. أحمد ابن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط1، 1422 هـ / 2001 م
3. أبو بكر العزاوي : اللغة والحجاج ، بيروت ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، 2009 .
4. أحمد بن علي آل مربع، علي الطنطاوي كان يوم كنت صناعة الفقه والأدب، العبيكان ، الرياض ط 1 ، 1428 هـ
5. أرسطو طاليس ، الخطابة حقه وعلق عليه عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، ودار القلم لبنان، 1979م

54 - عصفور ، جابر ، قراءة التراث النقدي ، دار كنعان ، دمشق ، ط1 ، 1991م ص 241

55- عياد ، شكري ، مدخل إلى علم الأسلوب ، ص 58

56- الغزالي عبد الله ، الخطبة والتكفير من البنيوية إلى التشریحية ص 77

6. عبد القاهر الجرجاني، علق عليه السيد محمد رشيد رضا، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت لبنان
7. باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ترجمة أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2009م
8. تون أ. فن دايك: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ترجمة سعيد بحيري، دارالفاخرة للكتاب، ط1، 2001 .
9. علي الجارم، ومصطفى أمين البلاغة الواضحة، مكتبة البشري، كراتشي، ط1 2010 م .
10. جمعان الغامدي، الحجاج في الخطبة النبوية، مجلة جامعة أم القرى، مطابع جامعة أم القرى، ع 10 رجب 1435.
11. عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد العربي، دار العلوم، ط1 / 1405هـ .
12. جوزيف ميشال شريم، دليل الدراسات الأسلوبية المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2 / 1407هـ
13. صابر الحباشة، تلوين الخطاب: فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاج، الدار المتوسطة للنشر - تونس، 1428 / ط1 .
14. الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير، دار الكتب العلمية، بيروت 1399هـ
15. محمد منال عبد اللطيف، الخطاب في الشعر، دار البركة، عمان ط1 1424هـ.
16. عبدالله صولة. في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، تونس، مسكيلياني للنشر، ط1، 2011 م .
17. جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، دار كنعان، دمشق، ط1، 1991م .
18. علي الشبعان: الحجاج بين المنوال والمثال (نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري)، مسكيلياني للنشر، تونس، ط1/2008
19. شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، دار العلوم، الرياض .
20. عبد الله الغدامي، الخطبة والتكفير من النبوية إلى التشريحية، النادي الأدبي، جدة، ط1، 1405هـ.
21. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار، القاهرة، 1992 م،
22. محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتب العربية بيروت
23. هند جميل، التلويح الكناني في تراث العلماء، مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية، 6 ذو الحجة 1431هـ.
24. هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب - الدار البيضاء، 1999م
25. هيثم سرحان، الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد - مقارنة في تحولات الهوية الثقافية، مجلة جامعة أم القرى للعلوم اللغات وأدابها، مطابع جامعة أم القرى، ع 11 محرم 1435
26. محمد يحيى، السمات الأسلوبية في الخطاب الشعري ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن 2011م